الخـــاتمـــة

obeikandl.com

لا يزعم صاحب هذه الدراسة أنه قد قال الكلمة الأخيرة في شعر نجيب الكيلاني، بيد أنه يؤمن إيمانًا جازمًا بأن اتجاهًا أدبيًّا لا يمكن أن يؤتي أكله حتى توازيه حركة نقدية تسدد خطاه، وتقيم عوجه، وتصلح أَمْتَه، ومن هنا تستمد تلك الدراسة أهميتها بوصفها لبنة في مجال دراسة الاتجاه الإسلامي في الأدب العربي الحديث.

وإذا كانت الجوانب الحياتية عند الشاعر، وعوامل بنائه الثقافي والأدبي، قد مُست بأطراف البنان، اكتفاء بما خطه الشاعر عن نفسه؛ فإن الوقفة قد طالت أمام القيم الموضوعية في شعره؛ لنقف منها على ثراءٍ في المضمون الشعري عند الكيلاني، وتنوعٍ في فنونه وأغراضه، ينضاف إليهما تفردٌ في التناول وطرافة في الأداء؛ ذلك أن الوجدان الجماعي كان غالبًا على شعر الكيلاني، ومن ثم لا يقنع الشاعر بمجرد الرصد المباشر، فتارةً نراه يتخذ الفن الشعري تُكأة إلى معالجة هموم الأمة الإسلامية وأدوائها، مثلما لاحظنا في سجنياته الشعرية، ومدحه ورثائه، وتصوفه، وحنينه.. وغيرها، وأخرى يتخذ الفن الشعري وسيلة من وسائل الأداء الفني، وقد تجلى ذلك في غزله على نحو خاص؛ إذ آضت المرأة عنده معادلا لما يشغله من قضايا وهموم، وفوق كل ذلك تَمَثُّلٌ جيد للتصور الإسلامي فيما كتب الشاعر من فنون وأغراض.

ولم تكن وسائل الإجراء أو التشكيل الفني أقل ثراءً أو تنوعًا من المضمون الشعري؛ فليس التعبير بالصورة أداة أثيرة عند الشاعر وحسب، بل هي إلى ذلك أنماط وألوان تتدرج من اللفظة المصورة بجرسها وظلالها، إلى الصورة الجزئية، فالصورة الممتدة، فالصورة الكلية، فضلا عن تنوع وسائل التشكيل التصويري إلى تشخيص وتجسيم، وتراسل حواس، ومزج متناقضات، ومفارقة تصويرية.

كما يستخدم الشاعر-فيما يستخدم-التعبير بالرمز، غير أن الشاعر قد أخفق في إنضاج رمزه فنيًّا؛ لأنه-أولا-قد قنع برمزين جزئيين (الليل والنهار) وما دار في فلكهما الدلالي، وقد

لاكها الشاعر حتى ابتذلها؛ ثم إنه-ثانيًا-لم يستطع الإبقاء على بكارة رموزه الكلية، بل سارع إلى هصرها قبل أوانها؛ إذ ما يكاد الرمز عند الشاعر يومض حتى ينطفئ.

على أن الشاعر ما عتم أن تدارك جانبًا من هذا الإخفاق في آلية الترميز، حين اصطنع الرافد التراثي أداة من أدوات الإجراء والتشكيل الفني، ولئن تنوعت معطيات الرافد التراثي، وآليات استدعائه وتوظيفه عند الشاعر، وتفاوتت-كذلك-درجة حضور كل معطًى في شعره، فإن ما يلفت النظر هو انعطاف الشاعر تجاه الموروث الإسلامي والعربي على نحو خاص، بما يعني أن الشاعر قد توسل إلى قارئه بأكثر المعطيات التراثية حظوة عنده، وأقربها إلى وجدانه.

وكما استرفد الشاعر الموروثَ معطياتِهِ، فإنه قد استرفد فنونًا أدبيةً أخرى وسائِلَهَا في بناءِ قصائده، فاتخذتْ بعضُ قصائده بناءً دراميًّا أو حواريًّا، واتخذ بعضُهَا الآخرُ بناءً قصصيًّا، واتخذ بعضٌ ثالثٌ بناءً مقاليًّا، غير أننا نلاحظ تدخلَ الشاعرِ وإقحامَهُ صوتَهُ في كثير من بِنَاهُ الحواريةِ؛ مما أفقد تلك البِنَى تدفقها وعفويتها، كما أنه-ورغمَ امتلاكِهِ القدرة الفنية المزدوجة: قدرة الشاعر وقدرة القصاص-لم يقدم لنا عملا قصصيًّا أو ملحميًّا شعريًّا كبيرًا، وقد يرجع ذلك إلى حياة القلق والاضطراب التي عاشها الشاعر جراءَ سجنِهِ واغترابه؛ إذ يحتاج العمل الملحمي الطويل-دون غيره من الأجناس الأدبية-إلى الاستقرار المكاني على الأقل والانفعالي[836].

ولقد توقفت الدراسة أمام أهم الظاهرات الأسلوبية عند الشاعر؛ إيمانا بضرورة المدخل اللغوي إلى قراءة النص الأدبي، والملاحظ أن تلك الظواهر إفراديةً كانت أو تركيبيةً قد أسهمت بدور غيرِ منكورٍ في بناء الدلالة، وتحقيق أدبية النص، لكنها لم تؤد ذلك الدور أو تلك المهمة بمعزل عن السياق الذي وردت فيه، مما يؤكد أهمية السياق في قراءة النص الأدبي.

أما مفردات المتن الشعري فقد امتاحها الشاعر من بئر عميقة ثرية؛ فالشاعر ذو معجم غني ينفق منه عن سعة، لكنه مع ذلك حريص على اصطفاء اللفظ الواضح البريء من الكلفة والتعقيد، والإغراب، وإذا كنتُ قد اقتصرتُ في تناول محاور المعجم على سبعة منها، فليس يعني ذلك أن تلك السبعة هي كل محاور الشاعر المعجمية، بل يعني أنها أوضح الحقول الدلالية عند

([836])-انظر: د. جابر قميحة: نجيب الكيلاني والقصة الشعرية، مجلة الفيصل، عدد (203)، ص 55.

الشاعر، ويتميز الشاعر بقدرة واضحة على تحميل ألفاظه بهوامش دلالية تبعدها عن معناها القاموسي، وتكسبها معنى شعريا يسهم في تشكيل الرؤية الشعرية.

وأما موسيقى الشاعر فقد اتكأت بشكل ملحوظ على الموسيقى الخارجية دون الداخلية، وإذا كان الشاعر قد تحرك في نصف المساحة التي يتيحها له العروض العربي (ثمانية أبحر تقريبا)، فإنه لم يكن مقيد الخطا، يتجلى ذلك أول ما يتجلى في جمع الشاعر بين إطاري قصيدة البيت وقصيدة التفعيلة، ويتجلى-ثانيًا-في عدم اكتفاء الشاعر بالصور التراثية المألوفة للأوزان العروضية، ثم يتجلى-ثالثا-في ذلك التنويع القافوي الهائل في شعره، ولعلنا قد لاحظنا ذلك في شعره المقطعي بالذات.

يبقى أن أشير إلى أن ما خُتِمَتْ به الدراسة من هناتٍ وقع فيها الشاعر، فإنها لا تعيبه؛ ذلك أنه اضطُرَّ إلى كثيرٍ منها اضطرارًا، وأين ذلك الشاعر الذي سلم شعره من المآخذ والهَنَوَات؟!، فلا بد-والكلامُ لابن رشيق-أن يُؤْتَى الشاعرُ المفلقُ، والعالم المتقن؛ لما بُنِيَ الإنسانُ عليه من النقص والتقصير[837].

وبعد، فلقد كانت غاية تلك الدراسة أن تقول: إن هناك شاعرا يدعى نجيب الكيلاني، فإن تك قالت فتلك غاية طمحت إليها، وإن تكن الأخرى فمني التقصير.

وعلى الله قصد السبيل

(837)-العمدة في صناعة الشعر ونقده: 2/ 1001.

obeikandl.com